نظريات نشأة اللغة الإنسانية، المحاكاة، التواضع، الإلهام...

❖ هل اختلف العلماء في تفسير نشأة اللغة؟

شغلت قضيةُ نشأةِ اللغة الإنسانية اللغويين والفلاسفة والمفكرين والمتكلمين على مر العصور، وينبغي أن نؤكد أن العلماء والمفكرين، لم يختلفوا في شيء من مسائل علم اللغة، كما اختلفوا حول موضوع نشأة اللغة، ولم يجمعوا على رأي واحد بل تعددت آراؤهم وذهبوا في ذلك مذاهب شتى، ونتج عن ذلك ظهور نظريات مختلفة[1].

❖ ما المقصود بنشأة اللغة؟

نعني بنشأة اللغة الحديثَ عن الكيفية التي تكلم بها الإنسانُ الأولُ لغةً ما، وكيف تطورت على مر العصور، حتى وصلت إلينا في صورها المختلفة الراهنة.

❖ ما هي أبرز نظريات نشأة اللغة؟

أشهر نظريات نشأة اللغة أربع:

1. نظرية التوقيف والإلهام
2. نظرية التواضع والاصطلاح
3. نظرية المحاكاة والتقليد
4. نظرية الغريزة والاستعداد الفطري

❖ ما هي أهم أسس نظرية التوقيف والإلهام؟

1. نظرية التوقيف والإلهام:

خلاصة هذه النظرية أن اللغة الإنسانية إلهام ووحي من الله عز وجل لا يد للإنسان في وضعها، فهو أعجز عن ذلك، ولذلك فهي توقيفية لا مجال للاجتهاد فيها[2]، وتتلخص في أن الله سبحانه وتعالى، لما خلق الأشياء، ألهم آدم عليه السلام، أن يضع لها أسماء.

❖ ما هي الادلة التي يعتمد عليها أصحاب هذه النظرية؟

1.1. أدلة أصحاب نظرية التوقيف والإلهام:

يستند أصحاب هذه النظرية إلى أدلة نقلية مقتبسة من الكتب السماوية، حيث استدل المسلمون بقوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا﴾[3]، قال ابن عباس رضي الله عنه: «علمه

1 رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط3: 1417هـ، ص109

2 محمد بن إبراهيم الحمد، فقه اللغة، مفهومه، موضوعاته، قضاياه، ص56

3 البقرة: الآية 31

الأسماء كلها، وهي هذه الأسماء التي يتعارفها الناس، من دابة وأرض وسهل وجبل وحمار، وأشباه ذلك من الأمم وغيرها»[4]، وعن مجاهد: علمه اسم كل شيء، وقال غيره: علمه أسماء الملائكة، وقال آخرون: علمه أسماء ذريته[5].

❖ هل للقائلين بالاصطلاح والتوقيف دليل عقلي؟

1.2. الدليل العقلي لنظرية التوقيف والإلهام:

للقائلين بالتوقيف دليل عقلي يردون به على أصحاب النظرية الثانية (الاصطلاح والتواضع)، وهو أن الاصطلاح يحتاج إلى لغة سابقة، فيرون أنه لا اصطلاح ما لم يسبقه توقيف، وإذا بطل الاصطلاح وجب التوقيف[6].

❖ هل ثمة اعتراضات حول هذه النظرية ؟

3.1. اعتراضات حول نظرية التوقيف والإلهام:

اعترض بعض العلماء على هذه النظرية، وذكروا بعض الحجج[7] على ذلك:

- أن نصوص بعض الكتب المقدسة كالتوراة وغيرها، حجة عليهم، إذ فيها إشارة إلى أن آدم عليه السلام هو الذي وضع الأسماء.
- أن الآية التي احتج بها المسلمون ليست دليلا قاطعا، وقد اختلف علماء التفسير في المقصود بالأسماء.
- أن اللغة لو كانت توقيفية، لما جاز إضافة أشياء أخرى فيها، والملاحظ أن لغتنا قد أضيف إليها الكثير من مصطلحات العلوم والفنون.
- نقل دلالات بعض الألفاظ إلى معان أخرى دليل على أن اللغة ليست توقيفية فقط، فقد نقل معنى كلمة السيارة من الدلالة الأصلية (القافلة) إلى المركبة المعروفة.
- ما تتميز به اللغة العربية خاصة من خصائص الترادف والاشتراك والتضاد دليل أيضا على أن اللغة ليست توقيفية.

❖ على أي شيء يرتكز النظرية الثانية، نظرية التواضع والاصطلاح؟

2. نظرية التواضع والاصطلاح:

4 الصاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها، أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، دار محمد علي بيضون، ط1: 1418هـ، ص13

5 محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص56

6 محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص57

7 المرجع نفسه ص85

تتلخص هذه النظرية في أن اللغة مواضعة واتفاق بين الناس، بحيث يجتمعون ويصطلحون على الأشياء ألفاظا وأسماء.

وتفسير ذلك: أنّ قوماً من العقلاء اجتمعوا واصطلحوا على أن يسموا هذا بكذا وذاك بكذا، ويجعل هذا عاماً في جميع اللغات، قال ابن جني(ت 392 ه): « وذلك أنهم ذهبوا إلى أن أصل اللغة لا بد فيه من المواضعة قالوا: وذلك كأن يجتمع حكيمان أو ثلاثة فصاعدًا فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء والمعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظًا، إذا ذكر عرف به ما مسماه، ليمتاز عن غيره، وليغنى بذكره عن إحضاره إلى مرآة العين»[8]، ثم أشار ابن جني إلى أن التواضع يمكن أن ينقل إلى لغة أخرى وجعل ما يشاهد من اختراع الصناع لأسماء صنائعهم كالنجار والصائغ والحائك دليلا على هذا الرأي[9].

❖ هل لهذه النظرية سند نقلي أو عقلي؟

1.2. أدلة أصحاب نظرية التواضع والاصطلاح:

ليس لهذه النظرية، أي سند عقلي أو نقلي أو تاريخي، بل إن ما يقرره البعض يتعارض مع النواميس العامة، التي تسير عليها النظم الاجتماعية، فعهدنا بهذه النظم أنها لا تُرتَجل ارتجالا، ولا تُخلَق خلْقا، بل تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها[10]، والمقصود هنا أنه لا يمكن لأحد أن ينقل عن العرب بل ولا عن أمة من الأمم أنه اجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة في اللغة ثم استعملوها بعد الوضع»[11].

❖ بم اعيرض العلماء على هذه النظرية؟

3.2. اعتراضات حول نظرية التواضع والاصطلاح:

اعترض علماء اللغة على هذه النظرية باعتراضات[12] منها:

- أن التواضع يحتاج إلى لغة سابقة يتفاهم بها، فالتواضع على التسمية، يتوقف في كثير من مظاهره، على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون. فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن؟ وهكذا نرى أن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل.

---

8 أبو الفتح عثمان بن جني الموصلي، الخصائص، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ط4، ج1 ص45

9 محمد بن إبراهيم الحمد، فقه اللغة، مفهومه، موضوعاته، قضاياه، ص60

10 رمضان عبد التواب، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، ص111

11 علوي بن عبد القادر السَّقَّاف، المنتخب من كتب شيخ الإسلام ابن تيمية، دار الهدى للنشر والتوزيع – الرياض، ط1: 1419 ه، ص301

12 محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص60-61

- الادعاء باجتماع بعض الحكماء أو العقلاء لم يقل به أحد، وليس عليه أي دليل، ولم ينقل عن العرب ولا عن أمة من الأمم أنه أجتمع جماعة فوضعوا جميع هذه الأسماء الموجودة في اللغة ثم استعملوها بعد الوضع.

❖ هل ثمة نظرية تعتمد على محاكاة الاصوات وتقليدها؟

نعم إنها نظرية المحاكاة والتقليد.

3. نظرية المحاكاة والتقليد:

تتلخص هذه النظرية في أن نشأة اللغة اعتمدت على محاكاة أصوات الطبيعة، وتقليدا للأصوات المسموعة من الحيوانات والأشجار، وبقية الظواهر الطبيعية كالرعد والبرق[13]، أو بعبارة أخرى أن تكون أصوات الكلمة، نتيجة تقليد مباشر لأصوات طبيعية صادرة عن الإنسان أو الحيوان أو الأشياء[14].

وقد ارتضى ابن جني هذا الرأي حيث قال: وهذا عندي وجه صالح ومذهب متقبل ثم قال مفسرا إياه: «وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنما هو من الأصوات المسموعات، كدوي الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيج الحمار، ونعيق الغراب، وصهيل الفرس ... ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد»[15].

❖ ما هي أهم الدعائم التي تؤيد نظرية المحاكاة ؟

1.3. أدلة أصحاب نظرية المحاكاة:

- مما قد يؤيد هذه النظرية، ما نجده في بعض الأحيان، من اشتراك في بعض الأصوات، في الكلمات التي تحاكي الطبيعة في عدة لغات.
- لغة الطفل كذلك حيث تبدأ تقليدا للأصوات ثم تنمو وتستقيم[16].

❖ فهل هناك اعتراضات ضد هذه النظرية؟

2.3. اعتراضات حول نظرية المحاكاة:

- اشتراك اللغات في الكلمات المحاكية للطبيعة، على هذا النحو، أمر نادر. ولو كانت هذه النظرية صحيحة، للاحظنا اشتراكا بين اللغات في الكلمات التي تحاكي الطبيعة؛ مثل: الشق، والدق، والقطع، والصهيل، والعواء، والمواء، وما إلى ذلك[17].

---

[13] محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص61

[14] رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص112

[15] ابن الجني، المصدر السابق، ج1 ص98-99

[16] محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص62

- أن اللغات الحالية لا تشتمل إلا على قدر ضئيل من الكلمات التي تتضح فيها الصلة بين اللفظ والمعنى[18].
- هذا المذهب، لا يبين لنا كيف نشأت الكلمات الكثيرة، التي نجدها في اللغات المختلفة، ولا نرى فيها محاكاة لأصوات المسميات، ويتضح ذلك بوجه خاص في أسماء المعاني، كالعدل، والمروءة، والكرم، والشجاعة، وغير ذلك[19].

❖ أخيرا، هل ثمة نظرية تعتمد على عوامل ذاتية تتعلق بالإنسان نفسه؟

نعم، إنها نظرية الغريزة والاستعداد الفطري:

4. نظرية الغريزة والاستعداد الفطري:

هي نظرية حديثة، ترى أن الإنسان مزود بفطرته، بالقدرة على صوغ الألفاظ الكاملة، كما أنه مطبوع على الرغبة في التعبير عن أغراضه، بأية وسيلة من الوسائل، غير أن هذه القدرة على النطق بالألفاظ، لا تظهر آثارها إلا عند الحاجة، أو في الوقت المناسب[20]، ولذا اتحدت كما يرى الباحثون، المفردات والتعابير عند الإنسان الأول، وأنه بعد نشأة اللغة لم يستخدم الإنسان هذه الغريزة، فانقرضت[21].

هذه النظرية أذاعها اللغوي الألماني: "مكس مولر"، ودعاها نظرية: "دنج دونج" Ding Dong، ولعل الذي دعا "مكس مولر" إلى وضع هذه النظرية، ملاحظة الأطفال، في حياتهم اليومية الحرة، التي تدل على أنهم توَّاقون إلى وضع أسماء للأشياء، التي يرونها ولا يعرفون لها أسماء، وأنهم يبتكرون أسماء لم يسمعوها من قبل، إرضاء لرغبتهم الفطرية في التكلم والتعبير عن أغراضهم، فاستنبط من ملاحظته هذه أن الإنسان مزود بتلك القوة، التي تنشأ عنها الألفاظ[22].

❖ هل لهذه النظرية ما يـ قصها؟

1.4. اعتراضات حول نظرية الغريزة والاستعداد الفطري:

هذه النظرية لا تحل المشكلة، فإن لنا أن نسأل صاحبها: كيف ومتى زُوِّد الإنسان بهذه الذخيرة اللغوية؟ وكيف انطوت نفسه على تلك الألفاظ الكاملة؟ وإذا كان قد زود بفطرته بهذه

---

[17] رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص113

[18] محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص62

[19] رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص113

20 المرجع نفسه، ص116

[21] محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص63

[22] رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص116

الألفاظ، فلِمَ اختلفت اللغات وتعددت اللهجات؟ فإننا نكاد نجزم بأن آثار القوى الفطرية لا بد أن تكون متحدة إلى حد ما. ثم كيف تسنى للإنسان أن يخرج تلك الألفاظ من مكانها، ويطلقها على المسميات المختلفة؟

فهذه النظرية، تنقل الباحث من مشكلة إلى مشكلات أعمق منها، وأشد غموضا ولبسا. وربما كان من أبرز عيوبها أنها تفترض ظهور الكلمة أو الكلمات الأولى لدى الإنسان، كاملة غير خاضعة لسنة التطور[23].

❖ هل ثمة نظريات أخرى حاولت تقديم تفسير للظاهرة؟

النظريات الأربع السابقة الذكر هي أشهر نظريات نشأة اللغة، لكن العلماء لم يكتفوا بها، بل حاولوا تفسير هذه الظاهرة فذكروا نظريات أخرى، لكنها لم تحقق الإجماع، ولم تصل إلى تفسير دقيق لظاهرة نشأة اللغة.

❖ هل يمكن التوفيق بين النظريات السابقة؟

بعد عرض أشهر النظريات، يتبين لنا أن الباحثين قد استنفدوا أبرز طرق البحث الممكنة، في اعتمادهم على الأدلة النقلية والعقلية، والبحث في الواقع اللغوي بمختلف إمكاناته.

وقد حاول العلماء قديما وحديثا التوفيق بين النظريات المختلفة، وفيما يلي محاولة للتوفيق، فكل من النظريات يحتمل جانبا من الصواب، كما يلقى اعتراضا أيضا، والتوفيق هو أن يجمع بين الجوانب الإيجابية لكل نظرية، للوصول إلى رأي جامع، لاشك أن الله تعالى علم آدم عليه السلام الأسماء بغض النظر عن المقصود بهذه الأسماء، ثم إن الله عز وجل قد وهب الإنسان قدرة على التعبير، فوهبه جهازا للنطق وعقلا للتفكير، وهما قادران على التعبير عما يستجد في الحياة، إما عن طريق التقليد والمحاكاة، وإما عن طريق الاصطلاح كما يحدث كلما جد جديد في الحياة واحتاج إلى ما يناسبه من مصطلح[24].

[23] رمضان عبد التواب، المرجع السابق، ص116

[24] محمد بن إبراهيم الحمد، المرجع السابق، ص64-65